الطفل السيئ

منذ ميلاد «آدم»، ومنذ ليلة الهروب الكبير، حينما فتحت باب الشقة وجريت بطفلي الباكي الصارخ المتشنج هبوطًا وصعودًا على السلم. منذ ارتدائي للبؤجة وربطه في حضني ليشعر بالأمان، منذ هذه الأيام، كانت حياتنا خارج البيت أضعاف فترة وجودنا فيه. إذا أردت تقسيمها بنسبٍ مفهومة، لن أبالغ إذا قلت إن 80% من حياتنا كانت خارج المنزل! في أول عامين، كنا نسير يوميًّا داخل التجمع السكني الذي نعيش به، أو نذهب إلى النادي من الصباح الباكر ولا نعود إلا قبل موعد الغداء، أو بعده مباشرة. كنا نذهب في زيارات عائلية طويلة منتظمة عدة مرات في الأسبوع، كنت أريد أن أتأكد أنني أملأ خزان الحب غير المشروط لدى صغيري. ذكريات الطفولة السعيدة الغنية بمشاعر الحب والأمان هي الملاذ في الكِبَر من قسوة الأيام وتقلبات الحياة. أنا أعرف هذا جيدًا.

قبل أن يتم «آدم» عامه الثاني بشهرين، بدأت زياراتنا للمزرعة ولمساحة الانطلاق المعروفة باسم «فجنون». بالتوالي، كنا نذهب يومًا في الأسبوع إلى المزرعة، وفي الأسبوع التالي نذهب إلى فجنون. وباقي الأسبوع يمر بين الزيارات العائلية وأيام النادي وساعات

السير في الكومباوند الذي نسكنه. في القيظ، كنا نقضي أيامًا كثيرة في المول، كنا نقف أمام زجاج عرض المحال وأحدثه عما نرى. كان «آدم» يصاحبني في رحلتنا الأسبوعية للسوبر ماركت والبقال والفرن والخضري والفاكهاني. كان يرى ويلمس ويستكشف كل شيء، وكنت أنا سعيدة به ومعه، رغم شبح «الفرحة الناقصة».

كنت أراقب الأمهات من حولي، وأسمع البالغين يصفون الأطفال بأبشع الصفات، وكأن بينهم ثأرًا. كم من الكراهية والاحتقار الغريب تجاه الكائنات الصغيرة. على عكس الكثير من هؤلاء البالغين، الذين يعتقدون أن الأطفال مخلوقات شريرة واستغلالية، أحبت «ماريا مونتيسوري» الأطفال واحترمت حقوقهم في اللعب والاستكشاف وحرية الحركة. هي نفسها كطفلة، لم تحب الاضطرار إلى الجلوس لفترات طويلة في الفصل، بينما تقوم مدرسة ما بتلقينها الدروس والمواد التعليمية في ملل ورتابة. أثبتت «مونتيسوري»، من خلال عملها مع الأطفال، أنهم بحاجة إلى الحركة واللمس والاستفسار باستمرار وأن هذه هي الطريقة الطبيعية ليدركوا الكثير عن التوازن، والمساحات، والفراغ والحجم، والوزن، ودروس قيمة أخرى.

الطفل السيئ هو طفل يشعر بالملل والإحباط في بيئته! قبل أن تتهموا الأطفال بأفظع الصفات، انظروا لهم وللبيئة التي يعيشون فيها، ثم اسألوا أنفسكم: أين يفرغ هذا الطفل طاقته الجسدية؟ أين يشبع هذا الطفل رغبته في الإبداع؟ ماذا يفعل الطفل بيديه طوال النهار؟ كيف ينمي معلوماته؟ هل هو طفل سعيد؟ هل يشعر بالحب؟ هل يسمع الحب؟ هل يضحك ويقهقه؟ تذكروا أن ذكاء الطفل في يديه، واليد التي لا تعمل أو تستكشف، تعبث وتخرب وتدمر!

الطفل الزهقان زنان – «ماريا مونتيسوري» بتصرف.

هل هناك سبب خفي وراء سلوك الطفل السيئ – خاصة بعد أول ثلاث سنوات؟

من الطبيعي أن يسيء الطفل التصرف من آن لآخر، ولكن ليس من الطبيعي أن يختار الطفل جميع السلوكيات السيئة ليتخذها نهجًا له. بعض الأمهات تشتكين من أطفالهن لأنهم مدمرون أو لأنهم شياطين أو لأنهم فاشلون، وأغلب هؤلاء الأمهات جربن الكثير

من طرق العقاب والثواب لتعديل هذه السلوكيات ولم ينجحن في مهمتهن. ما هو السبب الحقيقي وراء هذه التصرفات البغيضة؟ لقد وجدت الإجابة في كتاب د. «ويليام سيرز» The Discipline Book.

يقول د. «سيرز» في كتابه إن الطفل الذي يفتقر إلى تقدير الذات يسيء التصرف. هكذا! بمنتهى البساطة!

يبدأ الطبيب الشهير ورائد مدرسة التربية بالترابط Attachment Parenting كلامه بالتعريف بتقدير الذات فيقول إنه: شعور الطفل بأنه جدير بالحب وجدير بالاهتمام وبأنه مقبول ومرغوب ومحبوب.

في رحلة تقدير الذات هناك أشياء تبنيه وأشياء تهدمه، ومن أمثلة الأشياء التي تبني تقدير الطفل لذاته الابتسام في وجهه، والضحك معه، واللعب معه، والحديث معه، والأحضان والقبلات والكلام الإيجابي والمدح، وكذلك الرضاعة بدون جدول (الرضاعة عندما يحتاج الطفل للرضاعة)، وحمل الطفل كثيرًا، ومشاركته سرير الأهل أثناء النوم والاستجابة له ولندائه.

من الأشياء التي تهدم تقدير الذات ترك الطفل يبكي، وإهمال التعبير عن المشاعر الإيجابية له وعنه، والسخرية منه، ومقارنته بالآخرين، والانشغال عنه، والتذمر من أسئلته، وتجنب قضاء وقت معه، والتجهم في وجهه، واستخدام الكلمات النابية في التعامل معه، والحدة، ووصفه بصفات سلبية.

يدرك د. «سيرز» أننا بشر، وأن هناك أوقاتًا سنغضب أو ننفعل أو نتجهم، ولكنه يذكرنا أن الطفل يكون انطباعات حقيقية ودائمة عن نفسه وعن أسرته بناءً على ما يشعر به أغلب الوقت، وأن الاستثناء لا يصبح قاعدة إلا إذا تكرر وأصبح هو المعتاد.

إذا افتقر الطفل تقدير الذات Self Esteem، أصبح بداخله يشعر بعدم الاحترام وعدم التقدير وعدم الأهمية وعدم استحقاقه للحب، ومن هذا المنظور السلبي لذاته يختار إساءة التصرف. لماذا يتصرف باحترام وهو غير محترم؟ لماذا يحسن التصرف وهو يشعر أنه سيئ؟

لماذا يجتهد وهو فاشل؟ لماذا يحاول وهو غبي؟ لماذا يحافظ على مشاعر أهله وهو يشعر باستياء تجاههم؟

إذا أردت أن تعدل سلوك طفلك فعليك أن تعدل سلوكك أنت معه والقاعدة تقول Garbage in – Garbage out أو كما نقول بالعربية إن كل إناء ينضح بما فيه. ما فات قد فات، ابدءوا اليوم، ابدءوا الآن، ابدءوا من هذه اللحظة، ابدءوا بحضن صادق ليشعر الطفل بالأمان والحب والقبول. قبِّلوا طفلكم كثيرًا لأن هذا يشعره أنكم حقًّا تريدونه في حياتكم، ولا تنسوا النظر إليه، في عينيه، وأنتم تخاطبونه.

اضحكوا معه كثيرًا لأن هذا يشعره بمشاعر إيجابية تجاهكم، العبوا معه كثيرًا لأن هذا يشعره أنه جدير بوقتكم، حدثوه باحترام وتجنبوا الحدة أو السخرية، لأنكم تكونون صورته الذاتية بنبرتكم تلك، اعتذروا إذا أخطأتم لأنكم تعلموه الاعتذار والتسامح، اهتموا بأسئلته واهتموا بالحوار معه، لأن هذا يشعره بأن رأيه مهم، وأعطوه مسؤوليات مناسبة لسنه لأن النجاح سينمي ثقته بنفسه، وأخيرًا، اشكروه، امدحوه، عبروا عن حبكم قولًا وفعلًا. قد يستغرق الأمر وقتًا لتشهدوا تغييرًا حقيقيًّا في سلوك طفلكم، ولكن تذكروا أن الأمر بيدكم وأن سلامة طفلكم النفسية مسئوليتكم.

سأتحدث بالتفصيل عن الطاعة والثواب والعقاب والتغيير الحقيقي لاحقًا في هذا الكتاب، ولكن لا مانع أن تبدءوا الآن!